

مدينة باغاية خلال العصر الوسيط
المحطات السياسية، التغيرات العمرانية والتحوّلات الاجتماعية
أمين كرطالي،

كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر2، أبو القاسم سعد الله .

kartaliamine@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/02/1؛ تاريخ القبول: 2018/03/10

Bagaïa City during the middle ages: (political stations, urban changes and social transformations)

Abstract: The city of Bagaïa is one of the most important cities of the central Maghreb, Its geographical position has allowed it to play an important role in different areas, This city is considered as an ancient city, it was the property of the Roman Empire and transformed into a bastion of the Donatism, then it became a military fortress during the Byzantine period. While the Islamic conquest of North Africa lasted, the conquerors could only control it after defeating the Berbers under the command of El-Kahina. During the Islamic period, the city developed Especially in the days of the Aghlabids, when it became an imposing commercial city. The importance of the city continued during the Fatimid period and also under the Zirides era, but unfortunately it declined after the migration of Bani Hilal tribes. And during this period, Bagaïa underwent several social and economic transformations.

Keywords: Bagaïa; Donatism; Beni Hilal; the Aghlabids; central Maghreb;

الملخص: تُعتبر مدينة باغاية واحدة من أهمّ مدن المغرب الأوسط التي أتاح لها موقعها الجغرافي الهام لعب أدوار بارزة في شتى الأصعدة، ومثلت أحد أهم الحصون الرومانية، لكنها تحوّلت إلى مدينة متمردة عقب

ظهور الحركة الدوناتيّة حين رفضت تعاليم مجمع آرل، وفي عهد البيزنطيّين تمكّن القائد شولومون من إخضاعها، ثمّ تمتعت بنوع من الاستقلال عقب تلاشي نفوذ البيزنطيّين. وأثناء الفتح الإسلامي لشمال إفريقية استعصت على الفاتحين بفضل تحصيناتها لكنّها سرعان ما استسلمت بعد أن حلّت الهزيمة بالكاهنة لتُصبح تابعة للخلافة الأمويّة، وتطوّرت المدينة أيّام دولة الأغالبة وشكّلت واحدة من أهمّ مدن الزّاب، ولعبت دوراً مهمّاً في نهايات القرن الثّالث الهجري، خصوصاً أثناء الصّراع بين العبيديّين والأغالبة، وبعد أن تمكّن العبيديّون من ضمّها إلى دولتهم أصبحت كورة مستقلّة، أشرف عليها عمّال مستقلّون، وقد امتنعت هذه المدينة أمام أبي يزيد النكاري، مرّتين، لكنّها قبيل مغادرة العبيديّين إلى مصر تمرّدت على الخليفة العبيدي، وكذلك كان الأمر أيّام الدولة الزيريّة ثمّ الحماديّة، إلى أن ركنت إلى الهدوء ولزمت الطّاعة، لتعيش حياة استقرار ورخاء خصوصاً بعد تخريب الهلاليين للقيروان، لكنّ الزحف الهلالي على قرى ومجالات الزّاب جعلها تعيش مرحلة من التّقهقر والأفول. وقد صحب كلّ مرحلة من مراحل تاريخ مدينة باغاية عدّة تحولات اقتصادية واجتماعيّة مهمّة.

الكلمات المفتاحية: باغاية؛ الزّاب؛ الأغالبة؛ حمّاد؛ الدوناتيّة.

Résumé: La ville de Bagaïa est l'une des plus importantes villes du Maghreb central, Sa position géographique lui a permis de jouer un rôle important dans les différents domaines, Cette ville est considérée comme une ville ancienne, elle était dans la propriété de l'Empire Romain et transformée en un bastion de la doctrine du Donatisme, puis elle est devenue une forteresse militaire pendant la période byzantine. Durant la conquête islamique de l'Afrique du Nord, les conquérants ne purent la

contrôler qu'après avoir vaincu les Berbères Sous le commandement de El- Kahina. Au cours de la période islamique, la ville s'est développée Surtout à l'époque des Aghlabides. Quand elle est devenue une imposante ville commerciale. L'importance et l'ampleur de la ville a continuée pendant la période fatimide et sous l'ère du Zirites, mais malheureusement elle a décliné après l'empiétement des tribus Hilalienes. Où il est devenu une ville marginalisée. Et Au cours de cette période, Bagaïa a subi plusieurs transformations sociales et économiques.

Mots clés : Bagaïa ; Zab ; Aghlabides ; Hamad ; Donatisme.

تشكل الدراسات المتعلقة بتاريخ مدن المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط واحدة من أهم الدراسات التي تثير حقول البحث التاريخي، مع ما تُسهم به من إسهامات قيمة لأجل بناء تاريخ شمولي متكامل تتناسق فيه جملة من الدراسات الموضوعية. ولا شك أن مثل هذه الدراسات تُساعد إلى حد كبير في تفسير الظواهر السياسية والاقتصادية وما ينجم عنها من تحولات اجتماعية، ثقافية وسكانية. ومن جملة المدن التي سأخصّها بدراسة مستقلة «مدينة باغاية»، التي عُرفت منذ العهد الروماني واستمر إشعاعها إلى غاية العهد الحمّادي، وقد مرّت بمراحل متعدّدة، ولعبت أدوارا بارزة، كما أنّها كانت مسرحا لكثير من التحوّلات الاجتماعية والتغيّرات العمرانية. وفي هذا المقال سأحاول تتبع أهمّ المحطّات السياسيّة التي عاشتها باغاية مبرزاً أهمّ التحوّلات والتغيّرات الطارئة على المدينة، ومشيراً إلى عوامل إشعاعها مع التنبيه إلى أسباب تدهورها وأواخر الدولة الحمّادية.

الدراسات السابقة:

رغم ما اتّسمت مدينة باغاية من أهميّة بالغة في بدايات ومنتصف العصر الوسيط، فإنّها لم تحظ بدراسات حديثة مستقلة، بل غالبا ما يتمّ تناولها ضمنا لا استقلالا. ورغم جزمنا بقلّة هذه الدّراسات وصغر حجمها وضيق مجالها، فإنّنا لا ننكر ما تتوفّر عليه من معلومات مفيدة للغاية، فهي تملأ كثيرا من الفراغات على غرار الأعمال المنجزة من طرف الضباط الفرنسيين المشرفين على المجمع الأركيولوجي لمقاطعة قسنطينة *Recueil archéologique de Constantine*، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد دراسة ، (M.W. Ragot) المنجزة سنة 1873-1874م، وهي دراسة خاصة بصحراء مقاطعة قسنطينة، تضمّنّت أطلال وخرائب مدينة باغاية *province de (Le Sahara de la Constantine)*، ودراسة (Toulotte. M) الصّادرة بتاريخ 1894م والتي أسهبت في الحديث عن كنيسة باغاية وترجمت لبعض أساقفتها في الفترة الرومانية، مع ما قدّمته من معلومات قيّمة حول الحركة الدّوناتيّة. أمّا شارل دهيل (Charles Diehl) والذي صدر كتابه سنة 1896م، فتناول تاريخ شمال إفريقيا خلال العهد البيزنطي وتعرّض لحصن باغاية خلال الفترة البيزنطيّة، منبّها على بعض التحوّلات التي عرفها هذا الحصن خلال العهد الإسلامي. أمّا الدّراسات المغاربيّة فتوزّعت في ثنايا الأعمال التي أرّخت للدّول المُشرفة على المدينة خلال الفترة الوسيطيّة؛ مثل دراسة فرحات الدّشراوي عن الدّولة الفاطميّة في المغرب، ودراسة محمّد الطّالبي حول الدّولة الأغلبية، وتاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م لهادي روجي إدريس، وتاريخ دولة بني حمّاد لرشيد بوروية.

وتاريخ إفريقية في العهد الحفصي لروبار برنشفيك، كما نجد إشارات مهمة حول تاريخ المدينة ضمن الكتابات التي تناولت المجال الجغرافي الذي يضم مدينة باغاية، مثل رسالة الماجستير لموسى رحماني التي تحمل عنوان: الأوراس في العصر الوسيط من الفتح الإسلامي إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، وبعض المقالات التي تعرّضت لإقليم الزّاب خلال الفترة الوسيطة على غرار مقال علي هطاي حول الجغرافية التاريخية لبلاد الزّاب من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري.

تحديد الموقع وحيثيات النشأة:

تُعدُّ مدينة باغاية من أقدم مدن المغرب الأوسط، وتقع في السفح الشمالي لجبل أوراس، لقد عُرِفَت منذ الفترة الرومانية بعدة تسميات، فورد ذكرها في سجلات الكنيسة الكاثوليكية تحت إسم باغايا وباغاي (Bagaï ou Bagaïa)، كما ذكرها القديس أوغسطين باسم (Ragot Vagaïa M., 1873-1874: 213). ولا توجد شواهد كثيرة تمكّننا من إجراء مقاربات أو دراسات حول أصل ومصدر اشتقاق كلمة باغاية، فالاسم غير مألوف رغم بعض التشابه بينه وبين مدينة باجة القديمة أو مدينة بجاية الحمادية، ومع ذلك يميل هشام جعيط إلى أنّ أصل التسمية فينيقية، مُستمدّة من العمق اللّبي (جعيط، هـ. 2008: 53)،

تبعد باغاية بحوالي اثني عشر كيلومترا عن مدينة خنشلة الحالية، تقريبا في المكان الذي يُعرف إلى اليوم باسم قصر باغاي(الهادي، إ. ج 2، 1992: 82)، وبإمكاننا إلى الآن رؤية خرائب هذه المدينة منتشرة على طول

المنطقة الممتدة من بحيرة الطارف إلى سفوح جبل الأوراس، أي ما يقارب ثمانية كيلومترات. وتترى هذه المدينة فوق تلة مطلة على السهل الممتد من الرميّة إلى باغاية والتي ترتوي من المياه المنحدرة من قمم الأوراس، خصوصا بعد ذوبان الثلوج المتراكمة بقمم هذا الجبل، إضافة إلى توفر هذه المنطقة على شبكة من الأودية والأنهار، كنهر مسكيانة من الشمال ووادي باغاي، وهو نفسه واد أبيقاس الذي أسهب المؤرخ بروكوب (Procopé) بالإشادة به، والتنويه بأهميته، ويعرف هذا الواد أيضا بواد بورغال (Oued Bou-roughal)، والذي يربط بين بلدية باغاي وخنشلة (Diehl)، Ch. (1896:89).

أما بالنسبة لتاريخ تأسيسها فلا يُعلم على وجه التحديد، إلّا ما استنتقه علماء الآثار من الحفريات والتّقوش التي تؤكد أنّ تأسيسها يعود إلى الفترة الفينيقيّة، وتفيد الأبحاث الميدانيّة المنجزة أنّ باغاية كانت خلال العهد الروماني تتمتع بنفس امتيازات المدينة الرومانية : (Toulotte M. 1894 : 54-56)، وكشفت الحفريات ودراسة الشواهد عن كتابات ونُصب وكذا إهداءات تُبين أنّ المدينة كانت رومانيّة خلال فترة الأباطرة الأنطونين الأقوياء، والذين امتدّ حكمهم من 96م إلى غاية 192م، وقد حملت هذه الشواهد والنُصب التذكاريّة أسماء بعض هؤلاء الأباطرة مثل أوريليوس فيروس (verus) ومارك أوريليوس (Marc-Aurèle) (Ragot Vagaia M., 1873- : 213)، وواضح أنّ باغاية هي ومجموعة من المدن الداخليّة شكّلت أحد أهمّ المستوطنات الرومانيّة داخل مقاطعة نوميديا، وذلك ضمن مشروع روما الرامي إلى توسيع مجال الاستيطان نحو الداخل، (شنيتي، م. 2003 :

176)..ومع ذلك فإن اسمها لم يرد في سجلّات الامبراطورية الرومانية أو ضمن سجلّات الكنيسة إلّا بعد مرسوم ميلانو سنة 312م، والذي تبنت عقبه روما الديانة المسيحية، (Toulotte)، M. 1894 وهو التّبنّي الذي أفلق كنيسة باغاية وجعلها تتمرّد خصوصاً بعد أن رفض أساقفتها مُقرّرات مجمع آرل سنة 314م والذي حثّ الكنيسة على ضرورة إيجاد صيغة للاندماج في الدولة، وتجنيّد مبادئها ورجالها لدعم السّلطة الزمانيّة، وتمتين اللّحمة بين الامبراطورية والشعوب الخاضعة وهو ما ساهم في ميلاد المذهب الدّوناتي (Les Donatismes) الذي انشقّ عن الكنيسة الكاثوليكية (شنيقي، م. 2003: 18)، (Ragot Vagaia M., 1873-1874: 214).

وفي الفترة الوندالية حافظت المدينة على استقلالها لكنّها وبداية من عهد الإمبراطور البيزنطي جوستينيان (Justinien)، السّاعي إلى استعادة ممتلكات الإمبراطورية الرومانية، تمّ إخضاعها على يد القائد شولمون (Solmon)، سنة 538م (سلامة، ع. مج2، 1985: 416، Diehl)، Ch. 1896:88-89.

باغاية إبّان الفتح الاسلامي:

لم ترد أيّ معلومات عن وضع باغاية قبيل الفتح الإسلاميّ فالسجلّات الكنسيّة وكذا أرشف المراسلات يؤكّدان انقطاع أخبار هذه المدينة وهو ما يُوحى بتمرّدها عن السّلطة المركزيّة، وتلاشي نفوذ البيزنطيين بها، كما تُشعرنا الرّواية الاسلاميّة بظهور صحوة بربريّة، وتشكّل زعامات محليّة تحالفت مع بقايا الرّومان والأفارقة في بعض المدن البيزنطية السّاحليّة وكثير من المدن الدّاخليّة، ومن المرجّح أنّ باغاية في تلك الآونة تتمتّع بشيء

من الحرية، واستطاعت أن تُحافظ على تحصيناتها، مُشكّلةً سدًا منيعاً ضدّ الغزاة والفاحين (Ragot Vagaia M., 1873-1874: 215). أمّا بخصوص تركيبها السكانية آنذاك فكانت مشابهة لما عرفته مدن الشمال الإفريقي في تلك الآونة، من امتزاج بين الغالبية البربرية، ثمّ البيزنطيين (الروم)، ويأتي بعدهم الأفارقة أو الأفارق. ويبدو أنّ سكّان هذه المدينة بعد تقهقر النفوذ البيزنطي قد قاموا بتنظيم أنفسهم، واختاروا قيادة ترأسهم، مغلّين المصلحة المشتركة ضدّ باقي المصالح الضيقة، ولا يُمكننا الجزم بنوعية هذه القيادة، والتي من المرجّح أن تكون مُنحدرةً من أسرة نبيلة (ذنون طه، ع. 2004: 43).

أمّا بالنسبة للمجموعات السكانية البربرية التي استوطنت الأرياف المجاورة لباغاية فنجد قبائل جراوة وأوربة وكذا هواره بجبل أوراس، أمّا شمالاً فنجد قبيلة كتامة. وبعض قبائل البدو الرُّحل مثل مزانة وضريرة في منطقة الهضاب (ذنون طه، ع. 2004: 52؛ مؤنس، ح. مج 3، 1997: 261).

وفيما يخصّ ديانة أهالي المدينة قُبل الفتح الإسلامي فواضح أنّ المسيحية كانت مُنتشرة بكثرة، لكننا لا نستطيع أن نُجزم بنوعية المذهب الذي تبناه السكّان، هل هو المذهب الدوناتي كما يؤكّده حسين مؤنس، أم أنّ البيزنطيين قاموا بكنائس باغاية (مؤنس، ح. مج 3، 1997: 267). وإضافة إلى المسيحية يبدو أنّ اليهودية كان لها حضور لدى بعض السكّان، ومنهم انتقلت إلى قبيلة جراوة المُجاورة بجبل أوراس التي تزعمتها ديهيا المعروفة بالكاهنة، وكانت ديهيا من أقوى ملوك البربر لاسيما بعد مقتل كسيلة، وكان كلّ سكّان الأوراس يخضعون لها. أي أنّ المدينة قُبل الفتح الإسلامي رغم تمتّعها ببعض الحرية النسبية وخروجها عن السيطرة

البيزنطية، فإنها أضحت تدين بالولاء للكهنة (ابن الأثير، ع. ج 3، 1987: 451).

فتح مدينة باغاية: بعد معركة سببلة سنة (27هـ/647م) تمكنت جيوش الفاتحين من تجاوز مقاطعة أفريقية البروقنصلية (تونس حاليا)، وسرعان ما بدأت تُحاصر الحصون المنتشرة في منطقة الزّاب الغربي، لتتعرّض باغاية إلى حصار من طرف جيوش الفاتحين بقيادة عقبة بن نافع سنة (62هـ/682م)، و تذكر كتب المصادر أنّ الفاتح عقبة بن نافع سار في عسكر عظيم حتّى بلغ حصن باغاية، وأنّه خرج للقاءه خارج أسوار المدينة خلق كثير من الروم، فقاتلوه قتالا شديدا لكنهم انهزموا في الأخير، وتمكّن جيش الفاتحين من قتلهم قتلا ذريعا وغنم منهم غنائم كثيرة (ابن عذارى، أ. ج 1، 2013: 49). ويقول ابن الأثير أن المنهزمين لم يجدوا أيّ قوّة تحميهم سوى أسوار المدينة، لذلك تحصّنوا بداخلها، فأقام عقبة يحاصرهم مدّة، ثمّ كره المقام فسار إلى بلاد الزّاب (ابن الأثير، ع. ج 3، 1987: 451)، (النويري، أ. ج 24، 1423هـ: 26)، ويعزو عبد الواحد طه ذنون فشل عقبة في اقتحام المدينة إلى ظهور تحالف بين قبيلتي جراوة وأوربة من جهة والحامية البيزنطية في الشمال من جهة أخرى ضدّ الزّحف الإسلامي (ذنون طه، ع. 2004: 116). ولا يُستبعد أن يكون البيزنطيون وقبيلة أوربة قد قاموا بفتح جبهة جديدة في ضواحي تيهرت فسمع عقبة بزحفهم نحوه لذلك ترك حصار باغاية وبادر البيزنطيين باللقاء.

لكنّ عقبة بعد غزواته التي بلغت السّوس الأدنى والأقصى لقي مصرعه بعدما باغته قبيلة أوربة بتهوذة متحالفة مع البيزنطيين وذلك

سنة (63هـ/683م)، ومع مقتله تتوقف الرواية الإسلامية عن سرد الحوادث التي عرفتها المدينة إلى غاية ولاية حسّان بن التّعمان. الذي أسندت إليه ولاية أفريقية سنة (74هـ/694م)، وهنا تعود الرواية التاريخية إلى الانتعاش وتسرد تفاصيل مهمة عن الفتوحات التي تحقّقت على يد هذا القائد المُحنّك (ابن عبد الحكم، ع. 1964: 62-63)، مشيرة إلى الصراع بين جيش حسّان بن التّعمان وبين البربر تحت قيادة الكاهنة التي اتّخذت من مدينة باغاية مركزا دفاعيا متقدّما يحمي ظهر جيوشها ويؤمّن لها طريق العودة إلى الأوراس في حال الهزيمة. ثمّ بادرت إلى هدم حصن باغاية خشية أن يقتحمه حسّان بن التّعمان ويتّخذ منه مركزا لقيادة العمليات ضدها أو خوفا من أن يقطع عليها الطريق نحو المدن الشماليّة (ابن الأثير، ع. ج 4، 1987: 135. ابن عذارى، أ. ج 1، 2013: 62. مؤنس، ح. مج 3، 1997: 271) ثمّ عسكرت شمال شرق باغاية قريبا من نهر مسكيانة، والتقى الجيشان عند نهر نيني، وحلّت الهزيمة بجيش حسّان، وكانت هزيمة مُدوية جعلت حسّان يراجع حساباته، ويبادر إلى تقوية جيشه بجديّة كبيرة تأهبا للقاء المرتقب (النويري، أ. ج 24، 1423هـ: 36).

تعود الرواية التاريخية بعد ذلك للتوقّف عن تزويدنا بمعلومات عن هذه المدينة عقب تقهقر قوّات المسلمين، إلا ما ورد من أخبار عن قيام الكاهنة بتخريب مدن أفريقية ومن بين تلك المدن مدينة باغاية، فكره السكّان من الرّوم والبربر سطوتها، وتواصلوا مع حسّان بن التّعمان طالين منه أن يُنجدهم ويُخلصهم من تصرّفات الطّائفة، وهو ما عجل بهزيمتها ومقتلها بعد معركة حاسمة سنة (82هـ/701م)، وعلى الفور أذعن

القبائل البربرية وأهالي المدن الأفريقية لسلطة الخلافة الأموية، واعتنقت قبيلة جراوة وغيرها من قبائل أوراس البربرية الإسلام وبطبيعة الحال بدأ الإسلام ينتشر في المدن المجاورة للأوراس كباغاية.

إلى هنا ستشخّ المعلومات حول وضعيّة باغاية وكثير من مدن أفريقية والمغرب، في حين سنجد اهتماما بمسألة فتح الأندلس وأخبار ولاية أفريقية وغيرها من الأخبار السريعة المُقتضبة. وهو ما يعكس حالة الاستقرار التي تمتّع بها الشمال الإفريقي. منذ هزيمة الكاهنة إلى غاية مقتل يزيد بن أبي مسلم سنة (102هـ/720م) وهو الحدث الذي تزامن مع توافد دعاة الصفرية والإباضية الذين بدؤوا ينشرون أفكارهم الثورية في صفوف البربر مستغلّين ظلم عمّال بني أمية، وأذعنّت كثير من القبائل البربرية لتعاليم الفكر الخارجي، واعتنقت مزانة وضريسة وسدراتة وغيرها المذهب الإباضي (ليفيتسكي، ت، مج3، 1997: 332)، وبذلك تُرجّح أنّ باغاية منذ مقتل يزيد بن أبي مسلم بدأت تنتشر فيها المبادئ الخارجية، وعرفت توافد بعض رجالات العرب المتشرّين بمبادئ هذا الفكر والمُنسّين مع التّجار أو ضمن قبائل الجند. لكنّها ظلّت مدينة هامشيّة أثناء الثورة الخارجية الكبرى، حيث لم يرد لها ذكر.

إعادة بعث مدينة باغاية خلال العهد الأغلي:

بعد سلسلة من الفوضى والقتال التي استمرّت منذ ثورة الخوارج الصفرية بقيادة ميسرة المطغري أيام الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك سنة (122هـ/740م) وإلى غاية تولّي الخليفة العبّاسي هارون الرّشيد

149هـ/766م)، عادت الدولة الإسلامية لتشهد حالة من الاستقرار في ظلّ الخلافة العباسية، وتمتعت ولاية أفريقية بحياة آمنة فور تولي ابن الأغلب، الذي صير ولاية أفريقية سلطنة متوارثة لأسرته، وأصبح من الضروري بالنسبة للأغلبة أن يوجدوا امتدادا لدولتهم في الأقاليم الجنوبية الغربية لضمان مصالحهم التجارية وإحكام السيطرة على الطريق الرابط بين سجلماسة وبلاد الزّاب لذلك أولوا اهتماما كبيرا ببناء الحصون وإقامة حاميات تكون مراكز دفاعية متقدمة، وكان الأغلبة على دراية تامة بأهمية إقليم الزّاب ومدينة باغاية منذ أيام مؤسس دولتهم، فقد أشار البلاذري (ت292هـ/905م) إلى أنّ مؤسس الدولة الأغلبية إبراهيم بن الأغلب قد هرب إلى الزّاب واحتمى به حين كان هرثمة بن أعين واليا من قبل الرشيد. (البلاذري، أ. 1988: 231)،

وهكذا قام الأمراء الأغلبة بإحياء الخطوط الدفاعية الرومانية القديمة وترميمها كحصن باغاية، وبفضل هذه السياسة تمكّنوا من التحكم في جماعات البربر المقيمة والمترحلة، وأخضعوهم لرقابة الحاميات المسيطرة على سلسلة القلاع والحصون القائمة في مناطقهم وبذلك تم إرغامهم على الاعتراف بالسلطة النظرية التي كانوا يمارسونها (الدشراوي، ف. 1995: 514).

ولا نعلم كثيرا عن هوية الحامية التي أشرفت على المدينة، ولكن كلّ المؤشرات تؤكد أنّها تشكّلت من قبائل قيسية شأنها في ذلك شأن غيرها من مدن الزّاب المجاورة لها، على غرار مدينة بلزمة التي كان بها أيام إبراهيم بن أحمد بن الأغلب قرابة ألف رجل من أبناء العرب من قيس (ابن عذارى، أ. ج1، 2013: 127)، ومدينة ميله التي كان يُقيم بها بنو أبي خنزير من

وجوه أهل ميله وهم من العرب من ربيعة، ويُعرفون بالسّناجرة، لأنّ أولهم من سنجار مدينة من ديار ربيعة (القاضي، ن: 1986: 135) وتولّى أمورها رجل من بني سليم يقال له موسى بن العباس بن عبد الصّمد متولّى من قبل ابن الأغلب (اليعقوبي، أ. 1422هـ: 190).

وبفضل اهتمام الأغلبية ببغاية، صارت واحدةً من أهمّ مدن الزّاب، فبخلاف خرداذبة (ت 280هـ/ 893م) الذي لم يذكرها، أثناء تنويهه بأهمية بلاد الزاب المدرج ضمن أعمال ابن الأغلب (خرداذبة، ع. 1889: 87)، فإنّ اليعقوبي (ت بعد 292هـ/ 905م) كان أكثر دقّة وتفصيلاً عندما عدّد مدن الزّاب، واصفاً إيّاه بقوله: (والزاب بلد واسع فمنه مدينة قديمة يقال لها: باغاية بها قبائل من الجند وعجم من أهل خراسان وعجم من عجم البلد من بقايا الروم حولها قوم من البربر من هواره بجبل جليل يقال له أوراس يقع عليه الثلج.) (اليعقوبي، أ. 1422هـ: 190. الدّشراوي، ف. 1995: 42).

وقد تمكّن سكان المدينة بشتّى أجناسهم أن يحقّقوا شيئاً من التوازن الاجتماعي من خلال التعايش بين أهل البلاد الأصليين (البربر والأفارق والروم) وبين العناصر الدّخيلة (العرب والخراسانيون) بفضل التّهدئة التي تحقّقت أثناء النّصف الثاني من القرن التاسع، ولعلّ ما كانت تتمتع به باغاية من مؤهّلات تجاريّة ساهمت في تحقيق هذا التوازن (الدّشراوي، ف. 1995: 43)، كما أنّها اتّسعت أواخر أيّام الأغلبة وباتت تضمّ عمالة تيجس، وهو ما يُخبرنا به اليعقوبي عند قوله عن مدينة تيجس: (من عمل باغاية حولها قوم بربر عجم يقال لها: نفزة) (اليعقوبي، أ. 1422هـ: 190)، ولا نعلم على وجه

الدقة عن مدى نفوذ عاملها لكن أحد نصوص افتتاح الدعوة يفيدُ بتبعية عاملها لعامل الزّاب، فمثلا صاحب باغاية في أواخر أيام دولة الأغالبة كان زيادة الله الطّبي فيما كان ياتمر بأوامر عامل الزّاب وهو أخوه هارون الطّبي (القاضي، ن: 1986: 180-180. ابن خلدون، ع. ج. 4، 1988: 45). ونفس الشيء بالنسبة لقضاء باغاية الذي كان تابعا لقضاء الزّاب حسبما تكشفه ترجمة الفقيه أبي العباس إسحاق المعروف بابن بطريقة الذي ولي قضاء الزّاب وسائر عمالاته (الدباغ، ع. ج. 2، د.ت: 331).

وتزايد اهتمام الأغالبة بالمدينة أواخر أيامهم فقد تحوّل حصنها إلى أفضل حلقة ضمن سلسلة من الحصون أو الحزام الواقى الذي أقامه أمراؤهم في الناحية الجنوبية الغربية إضافة إلى حصون، تهودة، طبنة وبلزمة (الطالبي، م. 1995: 294 ؛ 299)، وهذا التّحصين الفريد والمحكم أهل المدينة للعب دور فعّال في التجارة والتّواصل. فكانت بحق نقطة عبور ومحطة تقصدها قوافل التجارة ومنازل يأوي إليها المسافرين، وممرّا آمنا يصل بين غرب أفريقية وشرقها وبين جنوبها وشمالها، ويُمكن اعتبارها منفذا لأقصر طريق من القيروان إلى طبنة (Tubnac) فالمارّ يمرّ بسبيبة وتبسة وباغاية مُعرجا على مسكيانة والتي أقيمت فيها حصون سبيبة وتبسة وباغاية، كما استعمل الأغالبة الطّريق الرّوماني الذي يرجع تعبده إلى سنة 145 م، والرّابط بين باغاية و تهودة Thabydeos عبر وادي الأبيض (الطالبي، م. 1995: 296-297).

وظلّت باغاية تحظى باهتمام كبير أواخر العهد الأغلبي، وتؤدّي دورا لافتا، وهو ما يُمكن أن نراه من خلال النّصوص التي أرّخت للصّراع

العبيدي الأغلي، وما بذله الأغالبة من أجل الحفاظ عليها، وكيف أنّ دخول حامية المدينة في طاعة العبيدين جعل زيادة الله الثالث يُفكر في ترك رقادة والهرب نحو المشرق، وذلك لأنها كانت ملجأ يقصده الجيش الأغلي في حالة تعرّضه للهزيمة مثلما حصل عقب انهزام القائد الأغلي إبراهيم بن حبشي أمام أبي عبد الله الشيعي، الذي احتفى خلف أسوار المدينة (القاضي، ن: 1986: 171-172، 205. النويري، أ. ج 28، 1423هـ: 96)، وأيضاً لأنها كانت أهم قاعدة عسكرية تنطلق منها حملات الأغالبة ضدّ المدن التي دخلت في طاعة العبيدين، مثل حملة زيادة الله أخو هارون الطنبلي إلى دار ملول التي انطلقت منها (القاضي، ن: 1986: 180-180؛ الطالبي، م. 1995: 749).

مدينة باغاية خلال الفترة العبيدية:

قيل قيام الدولة العبيدية، احتدم الصراع في مدن الزّاب، وكان أبو عبد الله الشيعي يعلم مدى أهمية باغاية وحصنها الحصين، لذلك ردّد عليها في كثير من المرات سراياه، لكنّ محاولاته باءت بالفشل، لأنّ زيادة الله الثالث بالغ في شحنها وتموينها كي تصمد إلى أقصى مدّة ممكنة (الدّشراوي، ف. 1995: 136)، لكنّ سقوط كلّ من حصن بلزمة وطبنة ومدينة تيجس، جعل مشيختها يتفاوضون مع أبي عبد الله الشيعي، فقاموا بإيفاد جماعة من أعيانهم مثل إبراهيم المعروف بابن المزيلي وعبد الله الرّدم وحمود القصير وغيرهم إلى أبي عبد الله الشيعي فهرب عامل المدينة إلى الأريس حين علم بالأمر، وفتحت المدينة أبوابها للعبيدين الذين دخلوها سنة (294هـ/ 907م)، وأعجب أبو عبد الله الشيعي وأنصاره الكتّاميون

بأسواقها وما تزرخ به من خيرات فأقاموا بها أياما، واستعمل عليها أبو يوسف مكيون بن ضبارة الأجنبي عمّ أبي زاكي أحد أشهر قادته مع حامية بلغ عدد فرسانها خمسمائة فارس (القاضي، ن: 1986: 203-204. الطالبي، م. 1995: 750). ومنذ ذلك الحين لم يُهمل أبو عبد الله الشيعي باغاية وصدّ جميع محاولات الأغلبة لاستعادتها (ابن الأثير، ع. ج. 6، 1987: 458. ابن خلدون، ع. ج. 3، 1988: 453). ولنا أن تصوّر مدى قيمة هذه المدينة آنذاك إذا علمنا أنّ العبيديّين بعد ضمّهم لها، جعلوا الأغلبة يخسرون الزّآب نهائيا، وبذلك اطمأن أبو عبد الله الدّاعي على مؤخرة جيشه ليتشجّع على تصعيد هجومه تجاه رقادة بدون مخاطر (الطالبي، م. 1995: 751؛ 763-764). وبدء من سنة (294هـ/907م) أصبحت خيل أبي عبد الله تغيّر على منطقة الأريس انطلاقا من باغاية (ابن عذارى، أ. ج. 1، 2013: 182).

وبعد أن استتبّ الأمر للدولة العبيديّة بأفريقية والمغرب، وبسطت هذه الدولة نفوذها على سائر أرجائهما، لم يُهمل خلفاؤها أمر باغاية، بل استمروا في تحصينها واختيار عمّال مخلصين لإدارة شؤونها، وأسندوا أمرها إلى عروبة بن يوسف ضمن ولاية المغرب (ابن خلدون، ع. ج. 4، 1988: 48)، ويظهر أنّ عبيد الله قد قام بعزل أو القضاء على أبي يوسف مكيون بن ضبارة الأجنبي عمّ أبي زاكي الذي سبق وتولّى أمر المدينة، ولعلّ الأمر له صلة بما أعقب مقتل أبي عبد الله الدّاعي وأخيه أبي العبّاس ونصيرهما أبي زاكي من تصفية أتباعهم.

وتطوّرت المدينة واتّسعت وأصبحت بمثابة مركز لكثير من المدن أو كورة مستقلة تحت إشراف عامل مستقلّ، وهو ما نفهمه من كلام ابن حوقل الذي قال: «وعاملها على صلاتها ومعاونها ووجوه أموالها عامل بنفسه لا من تحت يد

أحد» (ابن حوقل، م. ج 1، 1938: 84). ومَن تولى أعمالها أيضا أيام المعز لدين الله الفاطمي قيصر الصقليّ مستقلاً بها عن عامل الزّاب (ابن خلدون، ع. ج 4، 1988: 59؛ الدّشراوي، ف. 1995: 469). وقد أشاد بهذه المدينة خلال هذه الحقبة الجغرافي ابن حوقل (ت بعد 367هـ/978م) منوها بسورها العتيق، وربضها الفسيح الذي ضمن اتّصال المدينة بأريافها، وكان الرّبض مُحاطا بسور تتشّرع فيه الأسواق، أمّا بداخل المدينة فكانت تتشّرع البساتين الغناء التي تتوفّر على مياه أبار عذبة، ناهيك عن المراعي الفسيحة الواقعة ضمن مجالاتها (ابن حوقل، م. ج 1، 1938: 84). وأمّا بشأن شبكة الطّرق التي كانت تمرّ على باغاية فأشار ابن حوقل إلى الطّريق الذي كان يربط بين مدينة بونة السّاحليّة ومدينة مجانة ومنها ينحدر إلى تيجس ثمّ يعرّج قليل ناحية الشّرق نازلا إلى باغاية ثمّ يصعد إلى بلزمة وينزل قليلا قاصدا نقاوس ثمّ يغرب قليلا صوب طبة. كما كانت من بين الممرّات التي تربط بين أفريقيا والمغرب الأوسط، وبالتحديد بين باغاية وأشير (ابن حوقل، م. ج 1، 1938: 85).

وقد استطاعت تحصينات باغاية أيّام العبيديّين أن تصمد أمام محاولة أبي يزيد النّكاري الأولى لاقتحام المدينة سنة (332هـ/944م) (ابن خلدون، ع. ج 7، 1988: 21)، كما عجز أبو يزيد عن ذلك أيضا في أيام المنصور العبيدي سنة (335هـ/947م)، بفضل مقاومة الأهالي له، والذين أظهروا مدى ولائهم للدولة، وتشير الرواية الشيعيّة أنّ المنصور العبيدي حين قدم إلى باغاية في عساكره، عقب نجاح أهاليها في صد الهجوم الثّاني لأبي يزيد النّكاري، خرج السكّان لاستقباله في جمع غفير لم يتخلف عنه الصغير ولا الكبير، واحتفلت المدينة بمقدمه، وأنشده أبو يعلى المروزي أبياتا

في مدحه، وفرّق المنصور مالا كثيرا على فقراء المدينة وشكرهم على صنيعهم، وهو ما نفهم منه أنّ الكتاميين والشيعة كانوا بكثرة في المدينة (ابن حماد، م. د.ت: 64؛ عماد الدين، إ. 1985: 389)، واستطاعت أسوار باغاية أيضا أن تقف سدا منيعا أمام قوات أبي خزر الزناتي سنة (358 هـ/ 969م) أيام المعزّ الفاطمي رغم كثرتها (ابن الأثير، ع. ج 7، 1987: 199؛ 315؛ ابن خلدون، ع. ج 4، 1988: 52).

أما فيما يتعلّق بسكّان المدينة خلال الفترة العبيديّة فإنّنا نجعل مصير القيسيّين والأقلية العربيّة من جند العمّال وكذا الخراسانيّين، وما مجوزتنا من معلومات تُشيرُ فقط إلى توافد فروع كتامية أصبحت هي المشرقة على المدينة، إضافة إلى الفروع الهوارية والتي كانت على مذهب الإباضيّة، ويُفيدنا صاحب افتتاح الدّعوة بوجود جماعة من قبيلة مدغرة، تحت قيادة حارث المدغري في ثلاثمائة فارس، وأنّه تشيّع وأبلى بلاء حسنا في صدّ هجوم ابراهيم بن أبي الأغلب حين أراد أن يستعيد مدينة باغاية ويتحصّن بها (القاضي، ن. 1986: 225)، وبسبب تواجد بطون كتامية وبعض رجالات مدغرة أصبح للمذهب الشيعي حضور في المدينة، إضافة إلى المذهب الإباضي ناهيك عن عائلات سنيّة لا نعلم كثيرا عن أعدادها، ويبدو أنّ أنصار المذهب الإباضي كانوا يلتزمون التقية أو يخرجون إلى حيث توجد إمارة الظهور، مثلما تبيّنهُ إشارة عابرة وردت في كتاب عيون الأخبار، والتي ذكرت اسم رجل من رجالات أبي يزيد النكاري وهو كمين بن عمرو البربري، والذي ينحدر من مدينة باغاية (عماد الدين، إ. 1985: 372).

باغاية في عهد الدولة الزييرية

عرفت أفريقية وبلاد الزاب إبان الحقبة العبيدية اضطرابا كبيرا، وكانت جبال أوراس أحد بؤر التوتر التي ظهر فيها عددٌ من المعارضين للدولة مثل أبي يزيد النكاري وسعيد بن يوسف. إضافة إلى ثورات زناتة وهوارة وبعض بطون كتامة، لذلك كلف العبيديون زيري بن مناد بمهمة الدفاع عن دولتهم، وبعد مقتل زيري بن مناد سنة (343هـ/955م). اشتعلت أفريقية والمغرب من جديد، وتزايد نفوذ قبيلة زناتة خصوصا في سنة (358هـ/969م) عندما اندلعت ثورة إباضية وهبية احتضنتها قبيلة زناتة، وتزعّم هذه الثورة أبو نوح وأبو خزر، بدعم من زعيم زناتة ابن خزرون، الذي قام بتعبئة إباضية الزاب، وورقلة، والجريد، فحاصر المتمرّدون باغاية لكنّ الحاكم العبيدي تمكّن من هزيمتهم (Amara A. 2012: 130-135). وتصادف ذلك مع فتح جوهر الصقلي مدينة القاهرة سنة (358هـ/969م) لذلك بدأ المعزّ لدين الله الفاطمي يتأهّب للرحيل مُقلّدا أعمال أفريقية والمغرب لبلكين بن زيري الصنهاجي سنة (361هـ/972م)، وأمدّه بالمال والرجال، فباشر هذا الأخير الأعمال وطيّب قلوب الناس، وولّى عاملا على باغاية وأوصاه بالرفق بأهلها، وذلك في سنة (362هـ/973م). ونفهم من هذه الوصية ما تلقاه الأهالي من اضطهاد على يد العمّال الكتاميّين ربّما بسبب التعصّب المذهبي.

سُرّع ما ثار أهالي باغاية ضدّ عاملهم الجديد بعد أن اتّجه بلكين بن زيري ناحية الغرب، وقد انتصروا عليه وطرّده وتحصّنوا وراء الأسوار، فعندئذ وجّه إليهم بلكين بعض الجنود لكنّه فشل في استعادة باغاية، وبينما

كان يتجهّز للزحف إليها بنفسه كي يقضي على المتمرّدين إذ قدم عليه مبعوث من عامل تاهرت خلوف بن أبي محمّد يخبره بأنّ أهل تلك المدينة قد أزاحوا عاملهم. فانصرف ولكن لمعاقبة المتمرّدين من زناتة بتيهرت وغيرها من الأقاليم، وأرجأ أمر باغاية (ابن الأثير، ع. ج 7، 1987: 332؛ الهادي، إ. ج 1، 1992: 82-83).

لم يدم تمرّد المدينة طويلا، فسرعان ما أذعت على إثر استيلاء المنصور الصنهاجي عليها بعد حملته ضدّ زناتة الذين قتل منهم أعدادا هائلة، وبالع في تشريدهم، واستولى أيضا على تاهرت والمسيلة وطبنة (مفاخر البربر، 2005: 97). وعقب مهلك المنصور سنة (365هـ/975م). بادر القائد الزيري يوسف بن بلكين إلى معاقبة المتمرّدين فأخرجهم من المدينة وبالع في تخريب أسوارها (ابن الأثير، ع. ج 7، 1987: 333؛ الهادي، إ. ج 1، 1992: 86) ولعلّ السكّان الذين تمّ إجلاؤهم هم من القبائل الزناتية كقبيلة مدغرة، والذين سيتمّ تعويضهم لاحقا بسكّان مدينة ميله، بعد إخلائها من سكانها الكتاميّين أيام أبي الفتح المنصور سنة (378هـ/988م) (ابن عذارى، أ. ج 1، 1983: 243). وواضح أنّ باغاية لما توالى عليها التّكبات سرعان ما لزمّت الطّاعة وذلك ما يؤكّده رفض سكانها للاشتراك في التمرّد الذي قام به فُلُفُل بن سعيد بن خزون الزناتي سنة (389هـ/999م)، والذي حاصرها فامتنعت أمامه رغم طول الحصار (ابن عذارى، أ. ج 1، 2013: 271-272).

لقد أثّرت الثّورات التي عرفتها المدينة سلبا على عمرانها وقيمتها الحضارية والتجارية، وجعلتها تخسر تحصيناتها، كما أنّها خسرت عددا من

سكانها خلال عمليات الهجرة والتهجير، ما أسفر عن تغييرات اجتماعية جذرية، فباتت المدينة مأهولة بأغلبية إباضية تحكمها إدارة شيعية، فيما قد نستفيد من ترجمة أحمد بن علي الباغائي المقرئ، قيام بعض أهل السنة بالهجرة وترك المدينة، فقد جاء في ترجمته أنه وُلد بباغاية سنة (345هـ/956م)، ورحل إلى مصر لطلب العلم، ولم يعد إلى مسقط رأسه أثناء مغادرته لمصر. بل غرّب صوب الأندلس حيث استقرّ بقرطبة سنة (376هـ/986م) إلى أن توفي بها سنة (401هـ/1011م) (ابن بشكوال، خ. 1955: 87)؛ وقد بقيت عائلة أحمد بن علي بقرطبة كما نلمسه من خلال ترجمة ابنه أبي بكر محمد الباغائي المتوفى سنة (470هـ/1078) (المراكشي، م. ج 4، 2012: 15).

باغاية خلال العهد الحمّادي:

قامت الدولة الحمّادية على يد حمّاد بن بلكين الذي وبعد صراع طويل ضدّ باديس بن المنصور وابنه المعزّ بن باديس سرعان ما استقلّ بحكم أشير والزّاب وغيرها من أعمال المغرب الأوسط بداية من سنة (408هـ/1018م) بعد أن أبرم اتفاقاً مع المعزّ بن باديس (ابن خلدون، ع. ج 6، 1988: 210)، لكنّ اسم مدينة باغاية لم يرد ضمن المدن التي نقل المؤرّخون أنّ حمّادا قد استقلّ بها، فهل تمّ استثناءها مثلما يوحي به ما نقله ابن أبي دينار من تلقّي المعزّ لهديّة من مولاه صندل الذي كان عاملاً على باغاية في نفس سنة (408هـ/1018م) أي نفس السنة التي تمّ فيها الصّلاح، وهو الاحتمال الذي قد تؤكّده نازلة أبي إسحاق إبراهيم المعافري التي وردت من باغاية سنة (438هـ/1046م)، التي سأل فيها السائل عن حكم

مصاهرة الشيعة، فهل يعني سؤال أهل باغاية لفقهاء القيروان تبعية المدينة لسلطة الزيريين السياسية، أم أنها مجرد فتوى تعبّر عن سلطة روحية لفقهاء القيروان...؟ (الدباغ، ع. ج3، د.ت: 177-180. ابن أبي دينار، م. 1286: 81 ق). هذا الاحتمال الثاني هو الصحيح فالمدينة كانت لا تزال ضمن مدن الزاب، والذي أصبح تحت نفوذ الحماديين، كما أنّ القصة التي أوردها البكري والتي حدثت لحماّد عندما شنّ الغارات على باغاية قاصداً تأديب أهلها، يُفيدُ سياقها أنّها حصلت أيام استقلال هذا الأخير عن الدولة الزيرية (البكري، ع. ج2، 1992: 888-889).

وعرفت المدينة في عهد الحماديين مرحلة رخاء، واستعادت بريقها وأصبحت مأهولة بالسكان، كما شهدت حالة من التنوع والتعايش المذهبي، فغالبية السكان حسب رواية البكري كانت إباضية وهبية، مع وجود عناصر مالكية وشيعية وهو ما نستفيدة من فتوى أبي إسحاق (الدباغ، ع. ج3، د.ت: 177-180)، ولقد تمكّن السكان بعد عدة ثورات أن يركنوا إلى السلم والهدوء، ويحققوا حالة من التوازن والتعايش، الأمر الذي مكّنه من تطوير علاقاتهم من علاقات جوار إلى علاقات مصاهرة بين الشيعة والسنة. أمّا على الصعيد الاقتصادي فعاشت المدينة فترة رخاء ونشاط تجاري خصوصا بعد سقوط القيروان على يد القبائل العربية الهلالية، واستمرت حالة الرخاء وتوسّعت عمارتها كثيرا وفق ما بيّنه البكري (ت 487 هـ/ 1094م) الذي قال عنها آنذاك: «هي مدينة جليلة أولية ذات أنهار وثمار ومزارع ومسارح على مقربة منها جبل أوراس»، (البكري، ع. ج2، 1992: 710-711)، و وصف البكري حصن باغاية

وأكد أنه من صخر قديم حوله ربض كبير من ثلاث نواح باستثناء الناحية الغربية (انظر الشكل 1)، ويتصل بالناحية الغربية بساتين وأنهار، وأشار إلى وجود عدة أرباض بالمدينة إضافة إلى الفنادق والحمامات والأسواق، وبين أن جامعها موجود بداخل الحصن، ثم أشار إلى وجود فحص للمدينة تقيم به قبائل مزاتة وضريسة وأتهم من الإباضية، وحزم البكري بكون أهالي باغاية كلهم على رأي الإباضية (البكري، ع. ج 2، 1992: 831-832). وأظن أن المعلومات التي جاء بها البكري عن المدينة تعود إلى بدايات القرن الخامس، وذلك ما نلاحظه من خلال تطرق البكري لعدة أخبار عن حماد، وقصة تنكيه بسكان باغاية، إضافة إلى إخباره عن وجود أعداد كبيرة من الإباضية، وهو ما لا نجده عند ابن حوقل الذي زار المدينة في منتصف القرن الرابع الهجري.

باغاية والزحف الهلالي:

بعد عصر بني حماد الذهبي جاءت موقعة سيبية والتي بموجبها تسَلَّلت القبائل الهلالية بخطى مُحكمة عبر قرى وأرياف الزاب، وبذلك أضحت باغاية على موعد مع غارات متكررة للقبائل العربية، ولم تعد المدينة تحظى بإشراف بني حماد الذين تركوا القلعة وعمروا بجاية وانحصر نفوذهم في المدن الساحلية وبعض المدن الداخلية القريبة من الساحل، وتنازلوا للأتابج عن الأرياف وقرى الزاب بعد أن أبرموا معهم اتفاقا بهذا الصدد (بورويبة، ر. 1977: 160). ويصف وضع المدينة آنذاك الجغرافي الشهير محمد الإدريسي بقوله: «أما مدينة باغاي فمدينة كبيرة عليها سوران من حجر وربض عليه سور وكانت الأسواق فيه وأما الآن فالأسواق في المدينة

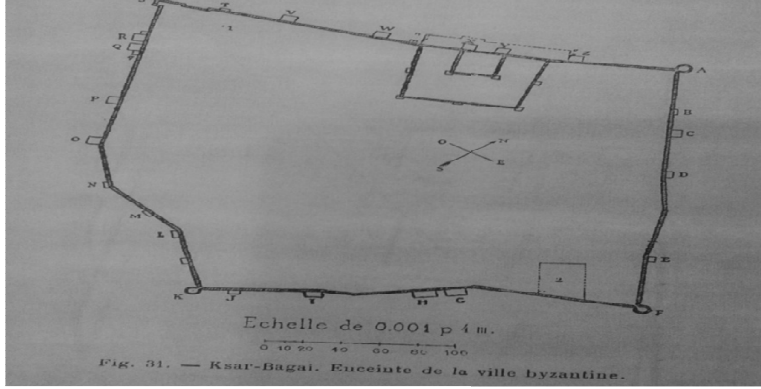
والأرباض خالية بإفساد العرب لها وهي أول بلاد التمر ولها واد يجري إليها من جهة القبلة وشربهم منه ولهم أيضا شرب من آبار عذبة وكانت لها بواد وقرى وعمارات والآن كل ذلك قليل فيها». (الادريسي، م. ج 1، 1409: 276-277) وتشير رواية الإدريسي باستقلال مشيخة المدينة بإدارة أمورها وهو ما يبيّنه قوله: «وحولها عمارات برابر يعاملون العرب وأكثر غلاتهم الحنطة والشعير وقبض معاوينها وتصرف أحوالها لأشياخها». (الادريسي، م. ج 1، 1409: 276-277) وهكذا خسر الحماديون مدينة طالما كانت تزودهم بالقمح والشعير، إضافة إلى أهميتها في تنشيط الحركة التجارية وأهمية موقعها العسكري (بورويّة، ر. 1977: 129) كما فقدت المدينة تنوعها السكاني والمذهبي، حيث تعرّبت ثمّ تسنّنت، شأنها في ذلك شأن مدن الزّاب (Amara A. 2012: 130-135). وأيضاً لم تعد تحظى بتلك القيمة وأصبحت معزولة عن حواضر الملك والمدن السلطانية في الشمال، لذلك غدت مجرد مدينة هامشية، لاسيما بعد فساد المسالك المؤدية منها وإليها، واستبدال السلاطين للطرق والمعابر الداخلية، بطرق ومعابر ساحلية، إضافة إلى انتقال السيادة في بلاد الزّاب إلى مدينة بسكرة التي عوضت في القرن الثالث عشر مدينة طبة وعوّضت في آن واحد نهائيا مدينة تهوذة، وأصبحت في عهد سلاطين بني حفص عاصمة للأقاليم الجنوبية الغربية، وسط منافسة من مدينة مقرّة، (روبار، ب. ج 1، 1988: 327). إضافة إلى ذلك فإنّ الطرق التي كانت تمرّ عبر باغاية قد أصبحت خيفة، وتحت سيطرة القبائل الهلالية، وعوّضتها طرق أخرى كتلك التي سلكها السلطان المريني أبو عنان في مسيرته إلى بلاد الزّاب التي خلّدها التّميري (ت768

هـ/1367م) وهي الطريق الرابط بين بسكرة وقسنطينة من جهة وبين بسكرة والجريد من جهة أخرى دون المرور على باغاية (النميري، إ، 1990: 412-425؛ 468. روبار، ب. ج. 1، 1988: 323). وبعد تلاشي قوة الهلاليين الأتابج غدت مدن وقرى الزاب تحت رحمة الذواودة والذين أزاحوا الأتابج واستبدوا بالمدينة (روبار، ب. ج. 1، 1988: 68)

وشيثا فشيئا صارت باغاية مدينة في طي النسيان، لذلك لم يُشر إليها جغرافيو القرن العاشر الهجري، فلا حسن الوزان حسن الوزان ت بعد 957هـ/1550م تحدّث عنها في صدد حديثه عن جبل أوراس، مُكتفيا بوصف سكّانه. ومخبرا عنهم أنّهم لا يريدون أن تُعرف مسالك جبالهم، اتقاء من أعدائهم الأعراب (الوزان، ح. ج. 2، 1983: 102-103) ولا مارمول تكلم عنها أثناء وصفه لجبل أوراس وسكّانه الذين وصفهم بكونهم متوحّشون، وأنّهم في حروب مستمرة مع العرب الذين يسكنون الجهات المجاورة لهم (مارمول، ك. ج. 2، 1988-1989: 390).

وبهذا نكون قد تناولنا تاريخ مدينة باغاية خلال العصر الوسيط، والتي لعبت دورا مهما أثناء الفتح الإسلامي لإفريقية والمغرب، واستعصت على الفاتحين، وبعد هزيمة الكاهنة أسلم غالبية سكّانها، وأصبحت مدينة هامشية إلى أن تولّى الأغلبة زمام الأمور في أفريقية فتحوّلت أثناء فترة حكمهم إلى مركز تجاري مهم وحصن عسكري منيع، وزادت أهميّة هذه المدينة إبان العهدين العبيدي والحمادي، لكن وبعد الغزو الهلالي لمدن وقرى الزاب فقدت باغاية أهميّتها وأصبحت في طي النسيان. وقد سحب هذه المحطّات السياسيّة عدّة تحولات سكانيّة وعمرانية ومذهبيّة.

الشكل 1:



خطط لحصن مدينة باغاية نقلا عن تشارلز ديهل (Charles Diehl) ص192

المراجع:

- ابن الأثير أبو الحسين علي. 1987م، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الإدريسي أبو عبد الله محمد، د.ت، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: مجموعة محققين، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية.
- الاصطخري ابراهيم بن محمد ، المسالك والممالك، ط1، القاهرة: الهيئة العامة لقصور القاهرة.
- البكري أبو عبيد الله عبد، 1992م، المسالك والممالك، أبو عبيد عبد الله البكري، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- ابن بشكوال أبو القاسم خلف، 1955م، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، راجعه: السيد عزت العطار الحسيني، ط2، مكتبة الخانجي.
- تاديوز ليفيتسكي، 1997م، دور الصحراء الكبرى وأهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب: تاريخ إفريقيا العام، مجلد 3، ص ص 309-348، ط2،

اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (اليونسكو)، دار النشر جون أفريك.

حسين مؤنس، 1997م، فتح شمال إفريقيا ومقاومة البربر: تاريخ إفريقيا العام، المجلد 3، صص 257-279، ط2، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (اليونسكو)، دار النشر جون أفريك

ابن عبد الحكم عبد الرحمن، 1964م، فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، بيروت.

ابن حماد محمد بن علي، د.ت، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق: التهامي نكرة وعبد الحليم عويس، القاهرة.

الحميري أبو عبد الله محمد، 1980م، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة.

ابن حوقل محمد البغدادي، 1938م، صورة الأرض، بيروت: دار صادر.

ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن، 2001م، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، ط2، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

ابن خرداذبة أبو القاسم عبد الله، 1889، المسالك والممالك، بيروت: دار صادر.

الداعي إدريس عماد الدين، 1985م، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

الدبّاع، أبو زيد عبد الرحمن، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: محمد المجذوب وعبد العزيز المجذوب، تونس: المكتبة العتيقة.

ابن أبي دينار، 1286هـ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، تونس: مطبعة الدولة التونسية.

رشيد بورويّة، 1977، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية.

- روبار برنشفيك، 1988، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة: حمادي السّاحلي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- سلامة ع.، 1985، من روما إلى الإسلام: تاريخ إفريقية العام، المجلد 2، صص 513-527، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (اليونسكو)، دار النشر جون أفريك.
- طه ذنون عبد الواحد، 2004م، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال أفريقيا والاندلس، ط1، بيروت: دار المدار الإسلامي.
- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب:
- 1983م، تحقيق: ج.س. كولان وليفي بروفنسال، بيروت: دار الثقافة.
- 2013م: تحقيق: عواد بشار معروف ومحمود بشار عواد، ط1: تونس: دار الغرب الإسلامي.
- فرحات الدّشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب (296- 365/909-975م)، ترجمة: حمادي السّاحلي، ط1، بيروت.
- القاضي النّعمان، 1986، افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدّشراوي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، تونس، الشركة التونسية للتوزيع.
- مؤلف مراكشي مجهول، 1986، الاستبصار في عجائب الأمصار، بغداد: دار الشؤون الثقافية.
- مارمول كرنجال، 1984م، إفريقية، ترجمة: محمد حجي وآخرون، الرباط: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر-مكتبة المعارف.
- مؤلف مجهول، مفاخر البربر، 2005م، تحقيق: عبد القادر بويابة، ط1، الرباط: دار أبي رقرق للطباعة والنشر.
- محمد البشير شنيقي، 2003م، أضواء على تاريخ الجزائر القديم، الجزائر: دار الحكمة.
- محمد الطالبي، 1995م، الدولة الأغلبية التاريخ السياسي 184-296هـ/800-909م، مراجعة: حمادي السّاحلي، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

المراكشي أبو عبد الله محمد، 2012م، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: الدكتور إحسان عباس - الدكتور محمد بن شريفة - الدكتور بشار عواد معروف، ط1، تونس: دار الغرب الإسلامي.

النميري ابن الحاج، 1990، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق: محمد بن شقرون، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990م.

النوري أحمد بن عبد الوهاب، 1423هـ، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط1، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.

الهادي روجي إدريس، 1992، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، ترجمة: حمادي الساحلي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي
هشام جعيط، 2008م، تأسيس الغرب الإسلامي (القرن الأول والثاني هـ/السابع والثامن م)، ط2، بيروت: دار الطليعة.

الوزان الحسن بن محمد، 1983م، وصف إفريقية، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، بيروت: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر - دار الغرب الإسلامي -.

اليقوي أحمد بن إسحاق، 1422هـ، البلدان، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

Amara Alloua, 2012, Entre le massif de L'Aures et les oasis: apparition, évolution et disparition des communautés ibadites du Zab (VIII-XIV siècle), Revue des mondes et de la Méditerranée, pp.115-135.

Charles Diehl, 1896, L'Afrique Byzantine (Histoire) de la domination Byzantine en Afrique (533-709), Paris : Ernest Leroux éditeur.

P. Troussel, 1991, « Bagai » in Gabriel Camps, Aix-en-Provence, Edisud.

Ragot, M, 1874, Recueil des notices et l'histoire de la société archéologique de la province de Constantine. ALGER: ARNOLET, Libraire-Éditeur.

Toulotte, M, 1894, Géographie de l'Afrique chrétienne; Monseigneur Toulotte, imprimerie Notre-Dame de Prés.

للإحالة على هذا المقال:

- أمين كرتالي ، (2018)، « مدينة باغاية خلال العصر الوسيط المحطات السياسية،
التغيرات العمرانية والتحوّلات الاجتماعية»، المواقف، المجلد: 13، العدد: 01،
جوان 2018، ص. ص. 171-200.